أدب القوة وأدب الضعف

للاستاذ محمود الخفيف

أحس إذ اتناول هذا الموضوع أني بين عاملين : عامل الحياء وعامل الفخر . أما الحياء فاول دواعيه أن أعقب أنا الصغير على مقال أستاذنا العلامة احمد امين . وأما الفخر فحسبي أن يقرأ لى الاستاذ سطوراً قد تحظى برضاه في موضوع كهذا يعنيه .

يرى الاستاذ « أن الشاعر المجيد هو الذى يثير العواطف بقدر، ويبنيها على أساس عميق » ويرى أن الأدب فى العصر العباسى كان أدبا ضعيفاً. إن أنت حصرته وجدته بين باك ومادح ومستهتر، ثم يرى أن عود الأديب الشرقى على نحو عود المغني الشرقى أشجى أغانيه احزنها ، وخير نغماته أبكاها .

وعلى ذلك يسمى الاستاذ ذلك النوع من الأدب الباكى الذي يتعمق فى أثارة العواطف أدباً مائعاً، وذلك الأدب الذى لا يثيرها إلا بقدر أدباً قوياً ، فهل يسمح لى الاستاذ أن أتجرا فأقلب هذا الوضع ، فاسمي ذلك الأدب الوجداني الحاد الذى يبالغ في اثارة العواطف أدبا قويا ، وذلك الأدب الذى لا يمت الى العاطفة بصلة قوية أدباً جافاً أو مائعاً ؟

أرى الأنغام الوجدانية الحادة أساس الأدب الحاد، ولن يكون الأدب الحاد مائعاً ، وأرى العبارات الخالية مما يثير العواطف أو التي تثيرها بقدر أساس التفكير العقلى ، والخطوة الأولى نحو الفلسفة « القوية » ولن تكون الفلسفة القوية أدبا قويا ، وعلى ذلك فما يسميه الاستاذ أدبا مائعا هو فى الواقع أدب قوي، وأما ما يسميه أدبا قويا فهو فلسفة قوية .

والأدب والفلسفة شيئان : فالأدب لغة القلب ، والفلسفة لغة العقل ، والانسان إنما يبدأ بقلبه فيفرح أو يبكى ويحب أو يبغض ويرضى أو يغضب ويأمل أو ييأس ويثور أو يهدأ حسب مايحس من عواطف ، فان كان لابد من تخفيف حماسته ، فليكن ذلك بشيء من حدة عقله ، ولكنى لا أرى تجريده من ذلك الحماس ولا أحسب ذلك ممكنا ، إذ ما القلب بغير حماس ؟ ثم ما الأدب بغير عاطفة ؟

وإذا اشتدت العاطفة فكيف يكون الأدب مائعاً ، وكيف تشتد العاطفة إلا إذا اشتدت بواعثها؟ وإذا ما اشتدت بواعثها فما القوة إن لم تكن القوة فى إظهارها قوية رائعة ؟

أن الانسان بطبعه عسوف عنوف ، لا يسكن إلا لعجز ، ولا يرتدع إلا من خوف ، ولا يعفو إلا عن ضعف ، ولا يقنع إلا مضطراً ، ولو أطلق له العنان لكان شره مستطيراً ومكره خطيراً بيد أنه على غلظته لا يخلو قلبه من عواطف نبيلة ، ولكنها خامدة، وميول خيرة ولكنها كامنة ، ولذلك فهي فى حاجة الى الابانة والتنبيه ، والأدب الوجدانى الحاد يخاطب القلوب فيهزها ويستثير ماكمن فيها من نبل فيبعثه ، ولذلك كان هو عماد المصلحين ودعاة الانسانية ، فانك ان تخاطب الانسان فى منطق وفى عبارات جافة فقلما يصغى اليك، وان استمع فقليلا ما يعى ، وإن أنت بدأت بقلبه فهززته فى رفق وألنته بأنغام قيثارتك ثم أهبت به فقد يهوى اليك .

تحدث شكسبير عن تأثير الموسيقى فى النفوس فبدأ بالعجماوات فقال ما بال تلك الوحوش الكاسرة تسمع أناشيد الموسيقى فتقعى متراخية وتظهر كأنها مأخوذة حائرة ؟ وما بال ذلك العدد المضطرب من الخيل الجامحة يسمع الموسيقى فيهدأ فجأة ويسير فى نظام كأنما تذهب الأنغام ثائرته وتسحره عن نفسه .

والأدب الوجدانى موسيقي النفس، وموقفه من القلوب البشرية الفطنة موقف الموسيقى الحسية من تلك الخلائق الهائمة الثائرة ، فهو الذى ينفذ الى القلب ويختلط بالنفس فيلائم بين ذراتها وينظم موجاتها. ويقلل من عنف الانسان وجبروته فيجعله رقيقا وادعاً .

ولا تثريب على الشاعر، أو القصصى، أن يبكى فيبكى عيونا تكاد أن تتحجر ، ويفتح آذاناً ضربت عليها المطامع المادية ويهز قلوباً كانت لا تحفل دعاء أو تجيب رجاء .

وهو أن بكى على نفسه فغير ملوم، فانما ينطق بما يحس، وبذلك ينفس عن قلبه وقد تخفق قلوب معه وتهوى أفئدة اليه ، وها هو ذا البارودى الفارس يقول :

أفى الحق أن تبكى الحمائم شجوها
ويبكى فلا يبكى على نفسه حر ؟
وماذا عليهم إن ترنم شاعر
بقافية لا عيب فيها ولا نكر ؟

وهو في بكائه غير ضعيف ، بل أن حدة عواطفه لتنهض دليلا على قوته ، وإلا فما أضعف جيته ولا مرتين وهوجو وأبا فراس والمعرى وغيرهم ممن ضربوا على أوتار حزينة باكية !

ولقد بكى هؤلاء فى شبابهم أعني فى أيام قوتهم وبكوا لقوة احساسهم ونبالة قصدهم وجمال انسانيتهم .

ومن البلية أن يسام أخو الأسى رعى التجلد وهو غير جماد

وليس من الضرورى أن يكون الشعر المتناهى فى وصف ما يلاقى المحب من عذاب غير مؤسس على عاطفة صحيحة ، لأن

مثل هذا الشعر يكون ترجمة لاحساس الشاعر فما دام انه محب فله أن يعبر عما يحس ، وليس لنا أن نتهمه فى ذلك بضعف ، بل أنه يكون ضعيفا حقاً ان هو أحس عذاباً من وراء حبه ثم لم يستطع الافصاح عنه .

ولم يكن الأدب العباسى ضعيفاً ، لما جاء فيه من بكاء ومديح واستهتار ، فان الأدب فى كل عصر صورة لذلك العصر ، فاذا عبر أدباء العباسيين عما يحسون فلم نتهمهم بالضعف ؟ وإذا كان أدبهم حزيناً باكياً يتخلله المديح والاستهتار فكيف كان يتسنى لهم أدب غيره ، وإذا هم تطاولوا فى غير عزة وتفاخروا في غير فخر وضحكوا فى غير مزح ، انما كنا نتهم ادبهم بأنه سقيم زائف أو بعبارة أخرى ضعيف مائع ؟

ثم أن الضعف السياسى لا يستلزم أن يكون وراءه ضعف فى الأدب ، بل لقد يكون الضعف السياسى ذاته سببا قوياً من أسباب قوة الآداب ، كما يحدث عند انقسام الدول الواسعة كما كان الحال فى القرن الرابع ، وكما كان الحال عند الأغريق فى مدنهم الحكومية وكما كان الحال فى النهضة الايطالية الحديثة .

وليت شعرى لم لا يكون بكاء الشعوب على ما يصيبها قوة واستنهاضاً للهمم؟ هزمت فرنسا فى حرب السبعين وخرجت ألمانيا متفاخرة بالنصر ، فخاطب أحد أدباء الفرنسيين الألمان الظافرين بقوله « نعم قد انتصرتم علينا ولكن ليس لديكم شاعر يشيد بنصركم كشاعرنا هذا الذى يبكينا على مصابنا فهل كان بكاء الفرنسيين فى ذلك الوقت ضعفاً ؟ اللهم لا .

وأما ما جاء عن مصعب بن الزبير حين استخفه الطرب، وعن استخفاف المنصور به لذلك حتى جعله يتمثل بتلك الأبيات التى أوردها الاستاذ ، فاقول أن مصعبا كان متغزلا وأن المنصور كان متفاخراً وشتان بين الموقفين ، فهذا تستملح فيه الرقة واللين وذلك لا يليق فيه إلا الصرامة والشدة. وإذا كان فى كلام مصعب ضعف فماذا يكون فى كلام الرشيد وهو يخاطب جارية بهذا البيت :

أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلهم عبيدى ؟

وبعد فيعجبنى من الاستاذ قوله أن أرقى الأدب فى نظره ما احيا الضمير ، وزاد حياة الناس قوة ، وهذا فى رأيى هو الأدب الوجدانى القوى ، هو ذلك الأدب الذى يرقق القلوب ، ويستثير الهمم ويطهر النفوس ، هو ذلك الأدب الذى يجعل من الشيخ شاباً فتياً ، وهو ذلك الأدب الذى يملأ المحاجر بالدموع والقلوب بالشفقة والحنان ؟

فلسفة سبينوزا

للاستاذ زكى نجيب محمود

لم يكد سبينوزا يبلغ سن الشباب ، حتى انكب على الفلسفة يدرسها دراسة صادقت فى نفسه هوى . فأخذ ينهل من مواردها العذبة ، ويؤثرها على كل شىء . وقد طالع فيما طالع فلسفة برونو فوقعت منه آراؤه موقع الاعجاب ، وامتلأ ذهنه بما قاله ذلك الفيلسوف من: أن الوجود في جوهره وحدة متجانسة ، وان تعددت ظواهرها . اذ نشأت جميعها من أصل واحد ، ثم اتخذت الوانا مختلفة لا تغير من جوهر طبيعتها المتجانس .

كذلك اعجبه رأى برونو المذكور القائل بأن الروح والمادة شىء واحد ، فكل ذرة من ذرات الكون يتحد فيها الجانبان : الروحى والمادي ، وعنده ان موضوع الفلسفة هو ادراك تلك الوحده التى تربط هذه الأشتات المتضاربة فى الظاهر فترى الروح فى المادة ، كما تلمس المادة في الروح .

ثم قرأ سبينوزا فلسفة ديكارت قراءة درس وتمحيص ، فدعاه الى التفكير الطويل رأى ديكارت فى تقسيم الكون الى شطرين : شطر مادى متحد فى الجوهر على الرغم مما يبدو فى الأجسام المادية من اختلاف ، وشطر روحى متجانس فى جوهره كذلك ، وهو عبارة عن مجموع القوى العقليه الحالة فى مختلف الأجسام ، وتدير هذين الشطرين وتشرف عليهما قوة الهية عليا . . . قرأ سبينوزا ذلك فلم يوافق على شطر الكون ، واختمرت في نفسه على الفور فكرة وحدة الوجود التى تقول بأن الكون شطر واحد لا يتجزأ ، وهذه الفكرة هى المحور الذى تدور حوله فلسفة سبينوزا ، وها نحن أولاء نتناولها بالشرح والتحليل .

يقول سبينوزا ان فى الكون حقيقة واحدة خالدة ، هى عبارة عن قانون عام شامل لاينقص ولا يزيد . هذه الحقيقة الخالدة ، أو هذا القانون الشامل ، لا يمكن ان يعبر عن نفسه و يفصح عن حقيقته الا بواسطة الاجسام المادية ، فاتخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون ، قوالب وأشكالا لكى يبرز عن طريقها الى عالم الواقع المحسوس ، وهذه الصور والأشكال المادية التى تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك